الهندية البيضاء

نشوان زيد علي عنتر

الهندية البيضاء

(رواية)

بقلم :

نشوان زيد علي عنتر

١٩٩٤م

الإهـداء :

إلى باكـورتي الـروائيـة الأولى

..... المـؤلـف

الفصل الأول

في هضبة أريكو القريبة من سكة الحديد لمحطة ساوث وود القريبة من جبال الأبلاش و من بينها جبل نيلتون (نسبة إلى القائد العسكري هارولد نيلتون الذي إستولى على المنطقة السالفة الذكر عام ١٨٢٤م) حيث يقع فيها مرتفعان منفصلان يشقهما نهر ماريواكا قادما من شلالات منبعه الصاخب بخليج هدسن من الجهة الأخرى حيث توجد خيام الغورانيين المثلثة الشكل و يقومون بأعمال الصيد و القنص و زراعة التبغ على التلال الخضراء القريبة من أحد سفوحها يتعاونوا فيما بينهم و لا يؤذون أحدا حتى أولئك الذين سلبوهم أرضهم القادمين من القارة العجوز أوروبا .

و في أحد الأيام ، خرج للصيد مرتديا عدتها و على أتم إستعداداته ، و قبل أن يذهب أمسكته سيلا من ذراعه على عجل رغم من إنها حامل في شهرها التاسع أي على وشك الولادة

(أرجوا أن تنتبه على نفسك و ترجع لنا بصيد ثمين)

(إطمئني يا زوجتي ، لن أكون خال الوفاض و أنت عليك ألا تتعبي نفسك في عمل أي شيء)

(لا تقلق نفسك بأي شئ من هذا فأنت تعرف أن البيت بدون إمرأة لا يصلح شئ فيه البتة)

(كـــلا ، ســـأكلف كلـــورا بالإشـــراف علـــى الكـــوخ و أنـــت و إســـتريحي و تمددي على الفراش كيلا تتعبين نفسك بأي توتر أو قلق رجاء)

(أمرك يا عزيزي ، فإطمئن بشان ذلك و قر عينا)

إســـتدعى كلـــورا فلبـــت ندائـــه علـــى وجـــه الســـرعة بصـــفته شـــيخ القبيلـــة و أوامـــره مســـتجابة مـــن جميـــع أفرادهـــا رجالهـــا و نســـائها صـــغيرها و كبيرهـــا (كلورا تعالي ، أريدك في شئ مهم)

(طوع أمرك يا زعيم)

(أريـــدك أن تقـــومي بكافـــة الأعمـــال المنزليـــة ، و ذلـــك لأن زوجتـــي كمـــا تعلمـــين حامـــل ، و قيامهـــا بهـــذه الأعمـــال المرهقـــة سيشـــكل خطـــرا علـــى حملها ، أرجوك قومي بذلك أثناء غيابي)

(إطمئن يا زعيمنا أكنتي سأخدم سيدتي و لن أخذلك أبدا)

و إطمـــئن أكنتـــي مـــن كلـــورا و ودع زوجتـــه و طلـــب مـــن كلـــورا أن تحضـــر القابلـــة فـــي حـــال مـــا إذا شـــعرت ســـيلا بـــآلام الوضـــع الشـــديدة ، و مـــا إن خـــرج مـــن الكـــوخ حتـــى إســـتدعى رجالـــه الأربعـــة كيـــرون و ليفـــار و جونـــا و ريبـــو و طلـــب مـــنهم التـــزود بعـــدة الصـــيد كاملـــة (أيـــن ســـتكون وجهتنـــا يـــا سيدي ؟)

(سوف نتجه إلى الغرب)

(و لكن هذه المنطقة مليئة بالطرائد الخطرة .....)

(و يجب أن تعرف أننا تنقلنا كثيرا في الشرق و الجنوب و إصطدنا كثيرا منها ، و لم يبق لنا سوى منطقة الغرب ، لذا فسوف نذهب إلى هناك حتى و لو خاطرنا بحياتنا)

(حتى و لو خاطرنا بحياتنا ؟!!!)

(أجل ، سوف نتجه إلى هناك)

(أرجوك يا زعيم نود من حضرتك بتغيير الإتجاه)

(كلا ، لقد حسمنا الأمر في هذا الموضوع نحو الغرب ، هيا)

و مشوا طويلا و في نفس الوقت توقفوا مصغين لصوت من بعيد (النجدةةةةةة)

(من ذا الذي يطلب النجدة و لا يوجد لأية طرائد متواجدة هنا هذه الساعة ؟!!! ..... و ما سبب ذلك ؟!!!!!)

(يبدو أن أحدا يشكو من مرض عضال أو وقع في الأرض !!)

(لا أظن ذلك ..... و إذا كان هو أو غيره مريضا فإنه يشفي نفسه من لعنته عبر أعشاب التكوهو الطبية المتوافرة بكثرة في هذه المنطقة بمجرد أن يقضم بضع قضمات منها)

كانت عيون أكنتي و رجاله مصوبة بقلق و بترقب إلى الشخص القادم نحوهم و ما أن ظهر شيئا فشيئا من المكان البعيد حتى إكتمل فإذا هو غوراني صغير يعدو بسرعة كالحصان مهرولا (سيد أكنتي ، بني، هه ، أرجوك أنقذنا أرجوك ، اهئ اهئ اهئ)

(على رسلك يا بني ، ما المشكلة ؟!)

ما أن وصل الفتى إليه حتى جثا بركبتيه أمامه منهك القوى من شدة الركض المتواصل و لاهثا من شدة التعب ، فربت على كتفه متسائلا (لماذا طلبت النجدة ؟! أهناك مشكلة حدثت لكم ؟!!!)

(لقد طلبت نجدتكم لأنكم زعيم قبيلة قوية و تحبون مساعدة الغير ، ثانيا بدأت جحافل الشريف نيكلسون تقتحم منازلنا و إحراقها و نسائنا و أطفالنا فيها الواحدة تلو الأخرى دون رحمة و حاول رجالنا عبثا مقاومتهم و لكن دون جدوى ، فأرسلني زعيمنا إليك بإعتبارك زعيم قبيلة زباكا أقوى قبيلة في الأبلاش كلها ، و عندما عدت رأيت زعيمنا يقاتل الأعداء حتى قتل في سبيل القبيلة و فداء لها ، و أتيت لأطلب النجدة و المعاونة منك)

و عندما أمعن أكنتي الإصغاء للصبي نهض و بعد تفكير وجيز (لا تقلق ، سوف نذهب معك و نقضي على الغزاة)

(و هذه هي المشكلة)

(ماذا تعني ريبو ؟! هلا أفصحت عما بداخلك ؟!!)

(أعني أننا سنتجه غربا بغرض الصيد ، لكن إذا ما غيرت الإتجاه شرقا فماذا سنعمل بعددنا القليل هذا أمام حشد هائل من الغزاة ؟!!!)

(لا تقلق بشأن ذلك يا ريبو ، سنتجه إلى كليهما و في آن واحد)

(كليهما ؟! و في آن واحد ؟!! كيف ؟!!!)

(سأخبرك فيما بعد على الطريق ..... يا لك من فضولي ، ها ها ها)

فضحكوا معه و إمتطوا خيولهم في التو و اللحظة ، في تلكم الأثناء و لاسيما في ديارهم الواقعة خلف جبال الأبلاش الشاهقة المخترقة ستائر السماء الزرقاء تعالى صراخ سيلا تحت وطأة مخاضها العسير و هي تمسك بذراعي كلورا تدعو لزوجها (أرجوك أن تساعدهم في أسرع وقت ممكن يا رب ، و أن ينتبهوا من أي خطر مميت يداهمهم بغتة في أية لحظة)

(لا تقلقي يا سيدتي ، سيكون سيدي بألف خير أن شاء الله)

إنطلق أكنتي و رجاله نحو المرتفعات الجنوبية و نزلوا عبر ممراتها السرية حتى وصلوا أرض الهضبة الزرقاء لإمتلائها بورود التين الأزرق بسرعة الريح و من ثم سهل بورتسموث المواجهة لمنبع نهر هاموراني

من الشمال إلى أن توقفوا عند مفترق طرق أربع (هذا مفترق طرق ، إنا و ليفار و الصبي نذهب من هذا الطريق الشرقي ..... أما أنت كيرون وجونا و نيور إلى الغرب بغرض الصيد ، هل فهمتم ؟)

(نعم)

و نظر إلى الصبي الذي أجابه (نعم سيدي)

(هيا بنا)

فتوجه أكنتي شرقا عبر الطريق المذكور آنفا و بقية رجاله غربا ، بينما زوجته كانت تتألم أثناء مخاضها العسير و هي تخشى على زوجها من الأخطار التي سيواجهها في طريقه ، لكن كلورا كانت تهدئ من روعها

(لا تخافي على سيدي ، إنه زعيم شجاع و لا يهاب المخاطر أو يأبه بما سيحصل له من متاعب إستريحي يا سيدتي ، إطمئني)

خرجت كلورا لإحضار الماء الساخن و الأغطية تاركة سيلا مطمئنة تستريح و تسترخي على فراشها و عندما عادت إليها روت لها بشرى تهدئ من روعها مشيرة بيدها إلى السماء من باب الخيمة المفتوحة (أنظري يا سيدتي ، أنظري إلى نجوم النصر الستة المعلقة دائريا في السماء و هي تبشر بإنتصار زوجك سيدي أكنتي)

فتحت كلورا عيناها بدهشة طاغية متأملة سيلا تتألم تألما شديدا لتهرع إليها ممسكة بيدها (ما بك سيدتي ؟!!)

(أشعر بألم في بطني)

(إنها آلام الوضع سيدتي ، لقد حان وقت الولادة ! يا إلهي! !)

فصرخت سيلا مولولة إخترقت زوايا الخيمة إلى الخارج (أن بطني تؤلمني جدا ، سأنفجر من شدة الغيظ)

(لا تقلقي سيدتي ستأتي القابلة حالا ..... اللهم أعنها في مشكلتها يا رب)

إستمرت سيلا في ولولتها الحادة دون توقف ، فإستدعت كلورا الفتى الذي كان يحرس خيمتها نبريل بسبب تأخر القابلة و طلبت منه أن يستعجلها في القدوم إلى هنا فورا و بلا تأخير ، و بسرعة البرق إنطلق نبريل نحوها حتى وجدها في كوخ إبنتها نيس و أخذها إلى خيمة سيده على وجه السرعة (سيدتي كلورا ، لقد أحضرت القابلة)

(شكرا نبريل ، هيا بسرعة)

طلبت القابلة الماء الساخن فأحضرته كلورا لها ، أما أكنتي و جماعته فقد وصلوا إلى منطقة ترين التي تسكن فيها قبيلة زباكا ، فواصل السير إلى أن أمر الجميع بالتوقف و إختبئوا خلف الصخرة فوجدوا

جميع جنود الشريف نيكلسون يحيطون بالمنطقة إحاطة السوار بالمعصم فهمس الصبي (إنهم على هذه الطريقة)

(لقد فهمت الآن ، و لا بد من تنفيذ خطة ليفار)

(ما هي يا سيدي ؟)

أسند أكنتي ظهره على الصخرة و فكر ثم فاجأ الإثنان (وجدتها لدى خطة رائعة ، تعالا إلي)

همس لهما شارحا خطته ثم طلب من ليفار ربط الجواد في مكان بعيد عن الأنظار و طلب من الصبي أن يتظاهر بالجنون و السكر شريطة أن يجذبهم إلى المكان المحدد لهما بينهما ، أما هو فسيقوم و ليفار بدفع الصخور القريبة منه ، بعد ذلك خرج الصبي إلى المكان الفاصل بين القبيلة و التلال البنية مؤديا حركات بهلوانية و تهريجية مضحكة ليثير تساؤل الشريف (من هذا ؟!!)

(إنه مجنون يا سيدي)

(ماذا يريد بهذه الحركات أن يقول ؟)

(إنه يريد نبيذا)

(هكذا إذن ، حسنا ، أعطه قنينة نبيذ من عندي)

فرمى الجندي القنينة للصبي ، فأمسكها فأخرج لسانه و وضع إبهامه على رمش عينيه ، فغضب الأول منه فحاول ضربه فأوقفه القائد (لا تكن منزعجا ، إنها مجرد دعابة) فإرتاح الجندي لكن الصبي قام برشق القائد بحجرة إصابته قائلا له (فلتمت أيها الوقح ، فإن قبيلتنا ستنتصر)

فغضب القائد غضبا شديدا و إلتفت إلى الجندي (أيها الجندي ، يبدو إنه ليس مجنونا ، إنه وقح)

(لا تهتم يا سيدي ، سنريه من نحن)

فحاول الصبي الفرار فلحق به قائد الكتيبة بحصانه حتى وصل بهم الأول إلى المكان المحدد فجذبهم حتى وقع فإنبطح و إختبأ في الصخرة الكبيرة بسرعة حتى وصلت القوات بأكملها على إثره إلى المكان المحدد (الآن !)

ما أن قالها أكنتي حتى دفعو الصخور المتوسطة أمامهم بشدة حتى تدحرجت تدحرج الكرات الحديدية منطلقة بسرعة البرق نحو الأعداء ففوجئوا بها و حاولوا الفرار منها و لكن سحقوا تحتها و من بينهم القائد ، و من نجا منهم حاول عبثا الفرار و لكنهم قتلوا تحت وابل من نيران البنادق ما عدا إثنين تمكنا من الفرار بسرعة دون أن يروهم حتى إنتصر أكنتي عليهم و فرحت القبيلة بهذا و كافأته على

ما فعل و قال الصبي مغتبطا أمام جثة زعيمهم القتيل (الآن تستطيع أيها الزعيم أن تنام بهدوء)

أما كيرون و صاحباه فتسللا نحو النهر و عبر الحشائش المحيطة به حيث قام الأول بخطة ذكية عبر إرتدائه جلد ثعلب هو و جونا فأتى أمامهم أرنبا بريا يرعى هناك ، فإختبئا في العشب ، فإنتصب الأرنب حذرا ليرى ما حوله و لكنه جلس فقفز كيرون عليه فجرى الأرنب بسرعة رهيبة ليأتيه جونا من الجهة الأخرى فقفز عليه و لكن الأرنب يفلت من قبضته إلى الأمام ، بينما الإثنان يجريان على إثره بنفس خفة الثعلب حتى وجد الأرنب طريقا أخر ليلوذ بالهرب فدخله حتى وجد فيه فوهة البندقية صوبه ، و ما أن حاول الهرب حتى أطلق نيور النار عليه فقتل فنجح الثلاثة في هدفهم ، فكرروا العملية ذاتها حتى حصلوا على العديد من الأرانب بعد مجهود شاق تكلل بالنجاح .

أما خيمة أكنتي فمازالت تعج بصراخ سيلا المخترق لعنان السماء تحت وطأة الوضع و كلورا تهدئ من روعها و هي تدعو الله دائما و القابلة تقوم بإبعاد الملابس عن منطقة البطن و الرحم حتى يخرج الجنين ، و كان يسود المكان صراخا شديدا تجهر به سيلا من شدة الألم لينقشع بتغريدة المولود الرضيع ما زاد كلورا فرحا و سعادة (الحمد لله و الشكر لك يا رب ، ما نوع المولود ؟ ولد أم بنت ؟)

فردت القابلة (إنها بنت جميلة جمال البدر في تمامه)

فإحتضـــنتها كلـــورا الســـعيدة بهـــا ، و عنـــدما وصـــل نبريـــل إلـــى الخيمـــة و طلبـــت كلـــورا منـــه أن يـــذهب إلـــى أكنتـــي ليخبـــره بـــولادة زوجتـــه بنتـــا ، و مـــا أن إمتطـــى نبريـــل صـــهوة جـــواده مســـرعا نحوهـــا و ذهـــب إلـــى مفتـــرق الطـــرق حيـــث إلتقـــى هنـــاك مـــع صـــديقه كيـــرون و جونـــا و نيـــور ، و أتـــى نبريـــل إليـــه يخبـــره بـــالخبر الســـعيد ففـــرح بـــه فرحـــا لا يوصـــف حيـــث تـــرك رجالـــه و توجـــه مســـرعا إلـــى مضـــارب القبيلـــة ليتفقـــد زوجتـــه و مولودتـــه الجديدة .

الفصل الثاني

و عندما وصل إلى القبيلة أوقف حصانه قبالة خيمته ، فشد وثاقه و أسرع الخطو نحو سيلا جاثيا على ركبتيه و هو يلمس يدها بنعومة الصابون النقي رغم ما إعتراها من إرهاق شديد جراء ولادتها المتعسرة آنذاك (هل أنت بخير يا عزيزتي ؟)

(إني بخير و لو إني مررت بصعوبات في وطأة الحمل)

(لا عليك ، المهم أنك أنجبت لي مولودا يملأ حياتنا المظلمة بالوحدة و العزلة بنوره الساطع و بهجة قدومه السار علينا و إن كنت أتمناه ولدا و لكني على كل حال راض بما رزقني الله إياه ..... أعطني البنت يا كلورا)

(تفضل سيدي)

إحتضنها بين ذراعيه مستغربا من منظرها ما أثار إستغراب سيلا بدورها (ماذا حدث لك ؟)

لم تفهم سر إستغرابه الشديد المنبهر في الوقت ذاته من وجه إبنته البيضاء الساطع الضياء الباهي الجمال و عينان سوداوان و جسم رقيق و هي في المهد و لكنه ما لبث أن بدد هذا الإستغراب برده

الحاســـم (لا يهـــم ، المهـــم أننـــي وجـــدت مولـــودا يفرحنـــي و يشـــعرني بالسعادة)

فإرتاحت سيلا (جيد ، و ماذا أسميتها ؟)

(سأسميها مارينتا)

(أليس إسما جميلا يا عزيزي ؟)

(ليس المهم الإسم بل مضمونه)

(أرجو ذلك)

(لا تقلقي و لا تهتمي)

فقـام بتقبيـل جبهـة زوجتـه سـيلا إخلاصـا لهـا بينمـا وصـل الفارسـان اللـذان أفلتـا مـن الفـخ الـذي نصـبه أكنتـي لفـرقتهم و قائـدها إلـى مبنـى الشـريف نيكلسـون فوقفـوا فنـزلا و شـدوا وثـاق خيـولهم و نـزلا قبـل أن يوقفهمـا الجنـدي قبـل أن يؤكـدا لـه تبعيـتهم للشـريف فيسـمح لهمـا علـى إثـر ذلـكبالـدخول ، فـدخلا و ألقيـا التحيـة العسـكرية أمـام حضـرته كالعـادة (عمت مساء سيدي)

(عمتمـا مسـاء ، مـا خطبكمـا ؟) فجلـس ثلاثـتهم علـى الكراسـي الماثلـة أمامـه (مـا الأمـر الـذي يجعـل عيونكمـا قلقـة إلـى هـذا الحـد ؟!!!)

فحـــاولا النطـــق و لكنهمـــا توقفـــا فهـــزهم صـــوت الشـــريف القـــادم إلـــيهم (ما بكما ؟! تكلما)

(لقد إستطاعت القوة محاصرة القبيلة بحذر شديد)

فأســـندالشـــريف ظهـــره علـــى كرســـيه الرمـــادي الضـــيق (و مـــاذا فـــي ذلـــك ؟! إنه شئ رائع و أفتخر به)

(و لكن سيدي نيكلسون القوة .....)

(مـــا بـــك تتلعـــثم فـــي كلامـــك؟!! تكلـــم و أفصـــح عمـــا تخفيـــه فـــي صـــدرك أنت و زميلك عني؟!!!)

(قضي عليها تماما)

ضـــرب الطاولـــة بهيـــاج شـــديد (مـــاذا ؟!!!!! هزمـــوا ؟!!!! مســـتحيل ، هـــذا غيـــر ممكـــن ، فقـــواتكم متمرســـة فـــي قتـــال هـــذه القبائـــل ببراعـــة فائقـــة ....)

(غيـــر صـــحيح ، فـــالقوة حاولـــت قتـــل الصـــبي القـــذر الـــذي تجســـس عليهـــا ، فـــإتجهوا إلـــى مكـــان بـــين القبيلـــة و الجبـــل الـــرابض بهـــا فنزلـــت علـــيهم فجأة صخورا هائلة حتى سحقوا و قتلوا و نجونا نحن الإثنين ....)

فضـــرب الشـــريف الطاولـــة مـــرة أخـــرى بحـــافتي يديـــه (لا يمكـــن ، هـــذا مســـتحيل) فـــنهض مـــن مكانـــه فجلـــس علـــى حافـــة الطاولـــة (هـــل تعرفـــون

نتيجة ذلك ؟ معناه أن سمعتنا ستسوء أمام حاكم ماساتشوستس و يطردنا من عملنا لأننا لم نقض على قبيلة ترين)

و توجه صوب النافذة و وضع ذراعه على ظهره و كفيه فوق بعض (ثم إنها القوة الوحيدة التي حاولت إيقاف هذه القبيلة لما إرتكبته من سلب و نهب للركاب المسافرين على متن القطار المار على إمتداد سهول الولاية المحاذية لمناطقهم و إغتصابهم و ليس لدينا قوة مدربة سواها ؟!! و نخسرها بسبب الصخور ؟!! أريد أن أعرف من هو الرأس المدبر لهذه المذبحة ؟ هل فهمتهم ؟!!)

(فهمت يا سيدي ، لكني رأيت إثنان منهم يقومان برمي الصخور و إطلاق النار علينا ....)

(كفاك مزاحا ! ليس هذا وقت المرح ..... هل قلت أنهما شخصان ؟!....)

(نعم يا سيدي)

فقرقع أصابعه بصوت قشع الصمت من مكانه الكئيب (وجدتها ، عندي خطة رائعة ستفلح بالتأكيد ، لكن قبل ذلك كله إشرحا لي أوصافهما و أنا سأعرفهما بطريقتي)

(الأول شعره صغير كث اللحية وجهه أبيض قليلا و عيناه واسعتان)

(هذا أكنتي)

(الثاني شعره طويل و عيناه صغيرتان قليلا و وجهه أسمر قليلا)

(هـذا ليفـار ، لقـد تكشـف لنـا كـل شـئ ، فـأكنتي هـو زعـيم قبيلـة زبـاكـا التـي تعـد أكبـر قبيلـة فـي ولايـة ماساتشوسـتس ، و قـام بهـذا العمـل المـتقن لمسـاعدة قبيلـة تـرين ، حسـنا يـا أكنتـي ، سـأريك مـن يكـون الشـريف نيكلسون ..... و الآن إصغيا مليا لخطتي الجديدة)

فشـرح لهمـا الشـريف تفاصـيلها الواحـدة تلـو الأخـرى ، و فـي منتصـف الليـل قـام الأول بإرسـال عشـرة آلاف جنـدي و قسـمهم علـى القبائـل الهنديـة المجـاورة لقبيلـة زبـاكـا ، و فـي كـل واحـدة منهـا يقـوم أفرادهـا علـى قلـب رجـل واحـد بمحاصـرة ديارهـا و تهديـد أهلهـا بالقتـل إذا مـا حـاولوا مسـاعدة الأخيـرة و طلـب يـد العـون منهـا ، بينمـا الثـاني أرسـل بقـوة قـدرها أربعـة آلاف جنـدي و طلـب مـن قائـدهم ألا يسـمع صـوت أحـد مـنهم حتـى لا تنكشـف خطـتهم ، فتربصـوا بالجبـل ريـب الحـذر و طوقـوا روابيـه المرتفعـة المنفصـلة عـن بعضـها الـبعض ، فكـان نيكلسـون علـى جـواده فـأتى الإثنـان إلـى الشـريف بالحصـان و سـألهما عـن أمـور الخطـة ليخبـراه علـى الفـور بأنـه تـم تطويـق الجبـل التـي فيهـا قبيلـة زبـاكـا مـن كافـة النـواحي بعـدما هـددوا القبائـل بالسـلاح و القتـل إذا طلبـت المعونـة مـن زباكا و شيخها أكنتي (و الآن أرني ماذا ستفعل يا أكنتي ؟ ها ها ها)

في صباح اليوم الباكر كان أفراد القبيلة منشغلين بأعمالهم المعتادة في الزراعة و الصيد بينما كانت سيلا ممددة على فراشها الجلدي الناعم المجفف و هي تتأمل مبتسمة إبنتها مارينتا قد أضحت فتاة يافعة و كبرت بسرعة في الكوخ تعد الطعام لها (أمي ! أنا لم أر أبي يا أماه منذ فترة طويلة ، أين هو ؟)

(إنه في مخيمه العادي مع رجاله)

(إسمحي لي بالذهاب إلى هناك)

(حسنا ، لكن لا تتأخري علي)

(لا تقلقي يا أمي ، أعدك بألا أتاخر)

فقبلتها سيلا قبيل خروجها حيث تمشت بين أكواخ القبيلة يتوهج وجهها بياضا و يزداد جمالا يفوق الوصف ، و الأمر سيان في عيناها الزرقاوان و شعرها الأسود البراق معتمرة قبعتها المصنوعة من القش الذهبي و مرتدية ثوبها الزاهي الألوان بخطوطها الباهية و تصميمها البارع ، و عندما دخلت إلى خيمة الزعيم رحبوا بها وعلى رأسهم والدها الكهل دون أن تفقده تجاعيد وجهه حيويته و شبابه و وجدتهم يتناقشون في أمور هامة تخص قبيلتهم المصيرية (مرحبا يا أبي)

فربت على كتفها و شد عضدها نحوه (مرحبا يا إبنتي ، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟)

(كـــي أراك و انـــت تخاطـــب رجالـــك كالقائـــد الشـــامخ يشـــرح لجنـــود خططـــه و طموحاته العسكرية)

(أهـــي الحقيقـــة أم أنـــه مجـــرد تملـــق مـــن فتـــاة مدللـــة تريـــد مقابـــل هـــذا المـــديح الوجيز طلبا من والده ؟)

(كلا الحالتين)

(ها ها ها ، يا لك من فتاة شقية)

مـــا إن قـــال هـــذا حتـــى هـــز إبنتـــه بشـــدة و أمســـكها مـــن عنقهـــا إليـــه فإلتفـــت إلـــى أحـــد رجالـــه قـــائلا (إذهـــب إلـــى قبيلـــة ســـيارات لكـــي تخبـــر زعيمهـــا بـــأن التعاون العسكري بيننا سيستمر)

(حاضر يا زعيم)

فإنصـــرف الرجـــل مـــن فـــوره ممتطيـــا صـــهوة جـــواده بســـرعة البـــرق منطلقـــا إلـــى مراده (ماذا سنأكل الآن ؟)

(سنأكل بطيخا بحجم كرشك المدور حتى تكف معدتك عن الصراخ)

(كف عن الهراء المازح هذا ، مفهوم ؟)

فضـــحكوا إلـــى أن ســـكتوا لحظـــة ســـماعهم صـــراخا آت مـــن اســـفل الجبـــل فأبعـــد أكنتـــي يـــده عـــن إبنتـــه فـــنهض مـــن فـــوره (هـــل تعـــرف هـــذا الصـــوت ؟ يبدو لي مميزا)

(لا أعرفه يا زعيم ، لكني سأستطلع الامر)

فخرج كيرون من الخيمة ليرى ماذا هناك في الخارج فإلتفت إليه سريعا (سيدي أنظر)

(ماذا يجري بالضبط ؟ سأرى بنفسي)

فخرج أكنتي من الخيمة ليرى نفس الصبي الذي آتى إليه من قبل و لكنه أضحى رجلا ذو لحية كثة خفيفة و وسيم ممتطيا جوادا أبيض (إنه هو ، أليس كذلك ؟)

(بلى يا زعيم)

(لماذا آتى إلى هنا ؟)

(لا أدري)

فخرجت مارينتا من الخيمة ثم أردف والدها قائلا (ثم لماذا ينادي على إسم قبيلتنا دائما لحظة وصوله ؟)

ثم أوقف حصانه و شد وثاقه بالقرب من خيمة الزعيم (جئت لأحذركم يا زعيم)

(مماذا ؟)

(من الشريف ، إنه يطوق الجبل بأكمله لمحاصرتكم)

(غير صحيح ، فالشريف لن يأت إلينا أو يجرؤ على مهاجمتنا ...)

(و لكنها الحقيقة)

(كلام فارغ ، لن يجرؤ على مهاجمتنا ، ثم إنه لا يعرف أننا وراء الهجمات الأخيرة التي حدثت في قبيلتكم و حررتها من سيطرته)

(أنظر إلى الأسفل و ستتأكد من صحة كلامي يا زعيم)

(أنظر إلى الأسفل ؟! ماذا تعني ؟!! ...)

فجاة سمع أكنتي صراخا و نفيرا يصاحبها أصوات القذائف و لعلعة الرصاص عليهم من كل حدب و صوب (ما هذا الذي أسمعه ؟!!!)

(كما أخبرتك من قبل يا زعيم ، أنظر إلى الأسفل)

فسار أكنتي قليلا حتى وصل إلى نقطة قريبة من ساحة المعركة ليرى بأم عينه مذهولا عددا كبيرا من الجنود بأسلحتهم الخفيفة و الثقيلة على حد سواء يطوقون الجبل من كافة الجهات و احد محاربيه سقط قتيلا أمامه (مستحيل !! لقد كنا نراقب المكان مراقبة دورية ليلا إحتراسا من المتسللين و لم يحدث أي اقتحام من قبلهم ، فيكف تسلل هؤلاء إلى هنا بهذا السرعة ؟)

(هذا ما يجب أن تعرفه يا أكنتي)

حرك أكنتي جسمه إلى الأمام فرأى الشريف ممتطيا حصانه

(ماذا تريد منا أيها الشريف ؟)

(نريد منكم الإستسلام ، فلا داعي للمقاومة)

(ماذا تعني أن نستسلم لكم أيها الشريف ؟)

(كلامي واضح يا أكنتي ، عليكم أن تستسلموا لنا لأنكم إعتديتم علينا ...)

(لم نعتد عليك أيها الشريف بالمرة ....)

(لا تكذب يا أكنتي ، فقد قمت بسحق قواتنا في ترين ، لذلك قررنا الإنتقام من القبيلة و قمنا الليلة الماضية بتطويق الجبل بهدوء شديد دون أن تعرفوا شيئا فإذا إستسلمت فأننا سننهي الطوق ، و إذا رفضتهم فأنكم سوف تقتلون جميعكم دون تفريق بين طفل أو إمرأة أو رجل في حال ما إذا حاولتم النزول)

(لن أستسلم أيها الشريف نيكلسون ، هذا آخر ما لدي)

(حقا ؟! لماذا برأيك ؟!!)

(لأن القبائل الهندية في منطقتنا سوف تهب عن بكرة أبيها لمساعدتنا)

(لا بد أن تمزح بكلامك الخاطئ هذا)

(ماذا تعني ؟!!)

(لقد أرسلنا في الليلة الماضية أكثر من قوة إلى قبائل المنطقة و هي تقوم بتهديدهم الواحدة منهم تلو الأخرى بالسلاح في حال محاولة المقاومة حتى ، لذا أمامك خياران ، إما الإستسلام فينتهي على إثرها الحصار و التطويق و أما إبادتكم جميعا عن آخركم و تعلق رؤوسكم على أسنة رماح بنادقنا المتلهفة لحرقكم بذخيرتها النارية)

و إنصرف الشريف عنه صاعدا إلى ربوة مرتفعة قريبة منه متأملا بعينيه ماذا سيفعل أكنتي الذي ذهب بدوره إلى رجاله يعرض صفقة الإستسلام المقدمة من الأول و يطلب مشورتهم فيرد جونا (علينا أن نستسلم لهم حتى لا نتعرض للقتل من قبلهم)

قاطعته مارينتا (أنا عندي فكرة رائعة)

(هل مفادها أن نستسلم لهم ؟)

(كلا ، لن نستسلم)

(ماذا تقولين ؟)

(إخفض صوتك ، فان هذه الفكرة سوف تنقذنا من أيديهم و لن نستسلم)

(حقا ؟! ما هي ؟!!)

(أصغوا إلي جيدا)

و بدأت تشرح خطتها الرائع لهم (أنت يا عم جونا و ليفار و كيرون و رنيز سوف تذهبون سرا إلى أفراد القبيلة في الناحية الأخرى عبر السرداب السري و عندما تخرجوا سيرشدكم شخص من طرفي في آخر الممر ، و أنت يا أبي ستستعد للهجوم إذا جاء أفراد القبيلة الباقين من الخلف بالجهة الأخرى)

فوافق الجميع على الخطة فأرشدتهم مارينتا إلى فتحة السرداب الصخري السري فنزلوا فيه (عندما تصلوا إلى آخره ستجدون دائرة حمراء ، إدفعوها فتخرجون منها)

فنزلوا بعدما أغلقت الفتحة بهدوء حتى وصلوا فوجدوا دائرة حمراء فدفعوها و خرجوا و تأكدوا من أن الجنود لم يروهم فإندفعوا بسرعة البرق إلى بقية أفراد قبيلتهم التي في الجنوب و القريبة من زباكا و وصلوا إليها ثم إختبئوا خلف الجبل و راقبوا القوة و هي تحاصر القبيلة (لن نستطيع إنقاذهم ، ماذا نعمل ؟)

(نادي عليهم)

(كيف ؟)

(أعرف كيف)

فصفر تصفيره البلبل الأبيض فسمعه أحدهم و رآه من بعيد و أحضر معه جرة فطلب من القوة أن تخرج فسمع أفرادها فخرجوا و تأكدوا من

عــدم مراقبــة أحــد لهــم ، فــإتجهوا إلــى المكــان فقفــز إليــه فاختبــأ دون أن يــراه أحد (ماذا تريدون ؟)

(جئنا لكي ننقذكم و تنقذونا في آن معا)

(هل أنتم محاصرون مثلنا ؟)

(نعم ، كيف يعاملونكم ؟)

(أنهم يعاملونا بقسوة و نعاني من وطأة الحصار علينا)

(فهمت ، و الآن سأخبرك بما ستعمل)

(أنا أسمعك)

فــأخبره جونــا بــأن يخبــر قائــده بإقامــة حفلــة غنائيــة إحتفــالاً بإستســلامهم شــريطة أن يســلموا أســلحتهم لأحــد الهنــود المــوالين لهــم و بعــدها ينشــغل الجنــود و يقومــون هــم بالبــاقي ، فــذهب الشــخص المــذكور أدنــاه و إتجــه إلــى القبيلــة و وشــوش إلــى القائــد راويــا لــه كــل شــئ ، فطلــب مــن القــوة أن تســمح لــه بإقامــة حفلــة غنائيــة بهــذه المناســبة ، فســعدو بــذلك و لكنــه طلــب مــنهم أن يســلموا الأســلحة إليــه ، فإســتغربوا مــن هــذا فهــدأ القائــد مــن روعهــم لأن الهنــود لــن يــأتوا حســبما إعتقــد إلــى هنــا فصــدقوا كلامــه ، و قامــت الحفلــة و كــانوا فــي غايــة الســعادة حيــث بــدأ الجنــود يشــربون النبيــذ حتــى الثمالــة فهــاجوا و مــاجوا و أضــحوا فــي حالــة ســكر فإســتغل جونــا و

رفاقــه الأربعــة الأمــر (عنــدما أنتهــي مــن العــد تصــيحون ... واحــد .. إثنــان .. ثلاثة .... الآن !)

فصرخوا جميعا ، فإلتفت الجنود ناحية خلفهم (ما هذا ؟!!!)

(الآن !)

فأخــذوا أفــراد القبيلــة الأســلحة و قــاموا بــإطلاق النــار علــيهم دون هــوادة ليسقطوا على إثر ذلك قتلى (هيا معنا لنخلص القبيلة من الباقي)

فإنــدفعت القبيلــة وراء كيــرون و معهــا الإيمــان و التعــاون يســاندان أفرادهــا الميــامين بقــوة ثيرانــا هائجــة تشــق عبــاب الهضــبة بكــل قــوة و عزيمــة و صــبر .

الفصل الثالث

و بينما كان الشريف يلوذ بالصخرة مختبئا من مهاجميه و خرج بحصانه متجها صوب أكنتي و يسمع قراره الأخير حول الإستسلام :(ماذا بك يا أكنتي ؟! ألم تقرر بعد ؟!!)

(بل قررت)

(ألا و هو ؟)

(عدم الإستسلام)

(أنك بهذا ترمي شعبك إلى مخالب الموت)

و حينها رأى أحد مساعديه قادما من قبيلة الجوكو ، فهز الشريف رأسه مفزوعا من منظره (سيدي ، سيدي)

(ما الأمر أيها المساعد ؟!!)

(أنظر وراءك و ستعرف)

فرأى الشريف جمعا من القبيلة يتقدمون نحوه و أصابه الإندهاش (كيف إستطاعوا الخروج رغم الحصار الشديد المضروب عليهم ؟!!!)

فهاجمتهم قبيلة الجوكو قبل أن يخرج حرس الحصار و أطلقوا النار عليهم بلا هوادة و قتل كثير من أفراد الأول و من بينهم زعيمهم لكن أكنتي صرخ في قبيلته بحماسة طاغية (الآن)

فهجموا على الحرس و قتلوا الكثير من جنودهم مقابل أربعة منهم ، و خلال الهجوم سقط جواد الشريف قتيلا مما دفع الأخير للفرار من سعير المعركة الطاحنة حينها بمساعدة مساعديه عبر حصان لأحدهما دون أن يعلم بنتيجتها التي أفضت إلى إنتصار الهنود الحمر على جنود الشريف القابعين أسفل الجبل و هو يصرخ في وجه أكنتي الرابض في أعلى المنحدر المقابل لهم (لقد خدعتني أيها الزعيم اكنتي)

(عليك يا سيدي الشريف أن تنتبه لنفسك من الركض المستمر ، ها ها ها)

(غررررر ، صمتا أيها الوقحون الحقيرون ..... و أنت أسكت أيتها القنفذ القبيح)

بكت مارينتا لحظة سماعها لهذه الشتيمة إلا أن والدها ربت عليها و مسح دموعها (بل هي أجمل من نسائكم القبيحات على مر الزمن ، فثلجي الأبيض السائر على قدميه البيضاويين البراقتين ينير بدرها المكنون في جسدها الصافي السماء و الأرض و تلجم من يحاول الإساءة إليها حتى أخر يوم في عمره)

فما أن قال ذلك سقطت صخرة متوسطة الحجم على الشريف فجأة فتنجبها بسرعة ، فعرف أن هذه الفتاة ستكون نذير شوم عليهم

ليطلب من مساعديه أن يرجعوا أدراجهم تاركا أكنتي في سعادة غامرة من أنتصاره العظيم حيث طلب من نبريل أن يحرس مخارج القبيلة حراسة شديدة الحذر ، ثم خرج مع زعماء قبيلة الجوكو صوب القبائل الأخرى في المنطقة لتحريرها من نير قوات الشريف الذي راقبهم منذ البداية و طلب من أحد جنوده أن يقتل نبريل و يلبس ملابسه و يدخل إليهم متنكرا و يستدعي سيلا أم مارينتا ليخبرها بأن إبنتها إختطفت من قبل رجاله ليستدعيهم حتى يحتلوا المكان ، فراح منطلقا كالفهد إلى المكان المذكور آنفا و معه مسدسه صوب مكان قصي لا يجده أحد مصدرا صوتا خافتا أثار إنتباه نبريل حيث توجه نحو هذا الصوت ليتفقده فإذا بالجندي المختبئ يطلق عليه الرصاص فجأة فيسقط الأول قتيلا على إثرها فسحبه الثاني و إنطلق الى مكان القبيلة و هو يلبس ملابس نبريل الميت مستدعيا بصوته أيضا سيلا التي لبت نداءه حيث يعلو وجهها الإستغراب و الدهشة (ما الأمر يا نبريل ؟!!)

(هناك خبر مؤلم لك)

(ما هو ؟ تكلم ؟)

(لقد إختطفت إبنتك مارينتا)

(غير معقول ! أين إبنتي يا نبريل ؟ أريد إبنتي ؟)

(لا تقلقي يا سيدتي ، لقد عرفت مكانها)

فأشار الجندي المتنكر إلى منطقة الصخور الرمادية أسفل الوادي ، فشكرته سيلا و خرجت كالبراق الذهبي المذكورة في أساطيرهم الشعبية يهبط على الأرض بهدوء حاملا سلامه لسكانها الفقراء دون أن يحاذر طعنة الغدر منهم ، فبعدما أدرك أنها بعيدة هناك حتى أشار لزملائه ليقوموا بمهاجمة القبيلة على حين غرة و إحراق خيامها و سلبها بينما لم تجد سيلا أحد ما في المكان المذكور سلفا ، فبدأت بالصراخ و العويل (مارينتا ! إين أنت يا مارينتا ؟! أين أنت يا إبنتي العزيزة ؟!!! ما ....)

فإذا بجندي آخر مختبئ خلف الصخور يرمها بسهم قاتل إخترق صدرها و لفظت على إثره أنفاسها الأخيرة مرددة إسم إبنتها بشكل متقطع (م – ا – ر – ي – ن – ت – ا) و سقطت على الأرض قتيلة مخضبة بدمائها الزاكية حيث ظهر القناص بعد ذلك الذي لم يكن سوى الشريف و هو يضحك بسخرية قاتمة (هذا جزاء زعيم القبيلة و أسرته لوقوفهما ضدي)

فبادله مساعداه نفس الشعور ، إلا أن الأول وجد أحدهم قادما نحوه فإختبأوا مجددا فاذا هي مارينتا و تابعها جيرو (لقد إستطعنا توحيد القبائل في منطقتنا و تحريرها من الغزاة)

(هذا بفضلك يا سيدتي)

(هـا هـا هـا ، أنـت تمـزح ، وحـدي لا أسـتطيع فعـل كـل هـذا ..... شـش ، جيرو ، ألا ترى ذلك الشخص الممدد هناك ؟)

(بلى أراه)

(يبدو لي مألوفا)

(لنستطلع الأمر)

فإنطلقـت مارينتـا سـاقيها للـريح نحـو الجثـة دون أن تنتظـر جيـرو اللاهـث نحوهـا متـأخرا ، فـإذا بـه يتفاجـأ بعينيهـا البـاكيتين و هـي تحتضـن الجثـة بشـغف شـديد (مـا الـذي يبكيـك يـا سـيدتي ؟ ثـم مـن هـذه المـرأة المقتولة التي تحتضينها هكذا ؟!)

(ويحك يا جيرو ! أنسيت صورتها بهذه السرعة ؟! اهئ اهئ اهئ)

مـا أن إقتـرب منهمـا قلـيلا حتـى راعـه مـا رأه أمامـه ، فلـم تكـن سـوى سـيدته و زوجـة زعيمـه أكنتـي سـيلا ، فمـا كـان منـه سـوى أن يشـارك مارينتـا بكائهـا و حزنهـا الشـديدين (آه يـا أمـاه ! اهـئ اهـئ اهـئ ، مـن السافل اللعين الذي تجرأ على قتلك بهذه البشاعة ؟ من ؟)

فيـأتي الشـريف مـن مخبـأه ممتطيـاً حصـانه الرمـادي نحوهـا (أنهـا صـدفة أو بالأحرى لي الشرف في أن أكون قاتلها)

(إذن فأنت الفاعل أيها الحقير ، بكل سفالة قتلت أمي التي لا ذنب لها ....)

(هذا جزاء من يخالف أمر الحكومة الفيدرالية ، أتفهمين ؟)

فضحك كثيرا دون مراعاة لمشاعرها و حالتها النفسية التي يرثى لها ، فإنفجرت غيظا و إنتزعت الخنجر من جراب جيرو الذي لحق على إثرها تنطلق لقتل الشريف الذي تجنبها بلمح البصر ليقبض عليها مساعده الأول و يضع يده على فمها ليكتم صوتها كيلا تصرخ طلبا للنجدة و بالأخرى ضغط على رقبتها ضغطا شديدا لدرجة الخنق و بدأت تكح قليلا و تبكي في آن معا ، فإذا بجيرو يهجم عليه و يستل خنجره الثاني ليطعن ظهر الأول الذي سقط قتيلا ، و حاول زميله بدوره إيقافه قبل أن يجهز جيرو عليه و يقتله بسرعة ، مما أتاح لمارينتا أن تسدد طعنة قاتلة إلى صدر الشريف الذي سقط من حصانه و قد فارق الحياة ، و بعد ذلك إتجهت ناحية والدتها لتحتضنها بقلب ملؤه الحزن و عينين يجهشان بالبكاء مجددا .

في تلك الأثناء ، أتى أحد أصدقاء جيرو إليه نازلا من جواده و يخبره بأن الزعيم و جيشه سحقوا الجنود جميعهم أسفل الجبل ، لكنه نظر إلى مارينتا و هي تهلوس (ما بك يا أماه ؟! ردي علي ؟!! لقد حاولوا قتلك و أنا صددتهم ؟!!! ....)

و سقط رأسها على صدر والدتها باكية بكاء شديدا و رقيقا رقة جدول خلاب يروي ماؤه كل شيء حي ، فتكدر وجه جيرو لحالتها البائسة ، ثم وصل الزعيم أكنتي إليهما بسرعة البرق (جيرو ، مارينتا)

(سسسيدي الزعيم ؟ أهلا و سهلا !)

(ما بك يا جيرو تتلعثم هكذا ؟! هل من خطب ما ؟!!)

(لللا أعرف ما أقول لك يا سيدي ، و لكن ستنظر بنفسك)

فإتجهت أنظار أكنتي نحو إبنته و الجثة المجاورة لها فصعق مما رأه ، لقد كانت جثة زوجته سيلا فإحتضنها (سيلا ، سيلا ، أجيبيني ، سيلا ، سيلا ، اهئ اهئ اهئ)

(أبي)

نهضت مارينتا و إرتمت بحضن أبيها معانقا إياها بكلتا يديه و متحسسا لشعرها باكية و تبلل دموعها عباءته المزركشة (ما ذنب أمي كي يقتلوها ؟ ماذا جنت ؟ سأنتقم منهم جميعا سأنتقم)

(مارينتا ! يجب أن يكون إنتقامك ليس من أجلي أو من أجل والدتك بل من أجل الهنود الحمر أجمع ، ليس في بوسطن فحسب و إنما في الولايات الأخرى ، نعم ، عليك أن تحاربي بجانبهم في أي مكان ، و

لاسيما المضطهدين منهم لكي ترجعي لهم حقوقهم حتى تسود المحبة عندما تكبرين)

فهمت مارينتا كلام والدها ، فنهضت مع أبيها و حملت معه جثة أمها بعدما نزعوا منها السهام بخشوع كبير ، فعندما وصلوا إلى مضارب القبيلة حيث أخبرهم جونا بأنهم إستطاعوا قتل الشخص الذي تنكر في زي نبريل ، و تم تشييع جنازة سيلا الطيبة القنوعة في مقبرة التعظيم ، و وعدت مارينتا بأنه من الآن فصاعدا ستأخذ بثأر الهنود الحمر جميعا من البيض .

بينما كان حاكم ماساتشوستس يجتمع في مقر الحكومة المحلية المعروف بقبة الكابيتول ببوسطن مع أعضاء مجلس الولاية المكون من ١٦ عضوا حول مشكلة تأمين وصول القطارات بسلام و الأمور التي يعترضها ، في تلك الأثناء رن الهاتف فرفع الحاكم السماعة (آلو)

(آلو سيدي)

(ما الأمر ؟)

(هناك خبر سيئ جدا بخصوص منطقة أريكو)

أطفأ وليم سيجارته الهافانا بقلق (ماذا حدث بالضبط ؟ تكلم بسرعة ..... ماذا ؟! ماذا تقول ؟!! الشريف قتل ؟!!! هذا مستحيل ! و

مساعداه قتلا معه أيضا ؟!!! لا تعرف من قاتلهما ؟!!! هل تمزح معي ؟ أن القاتل بالطبع من الهنود الحمر طبعا ..... حسنا حسنا ، سأتصل بك فيما بعد)

وضع السماعة و عاد إلى قاعة الإجتماع و من فيه ينظرون إليه بترقب و قلق و إستغراب (أعرف أنكم قلقون جدا ، لقد وصلتني الأخبار من منطقة أريكو للتو بأن الهنود الحمر قد قتلوا قائد قواتنا هناك الشريف نيكلسون)

(من بالتحديد ؟!!)

(من قطاع الطرق)

(من يكون هذا ؟)

(ربما يكون من رعاة البقر ...)

(مستحيل ! لقد قضينا عليهم)

(لقد قال لنا الرئيس بأنهم من الهنود الحمر ..... لكني لا أظن أن كل القبائل قريبة من مقر قيادة الشريف حتى تتمكن بسهولة من الإنقضاض و الهجوم عليه)

(ماذا تعني يا جرين ؟)

(أعني يا سيدي أن هناك قبيلة قوية خارجة عن السيطرة تستطيع مهاجمة مقر الشريف و مساعدة القبائل الأخرى)

(أفصح رجاء ، ماذا تقصد ؟)

شرد قليلا و فرقع بأصابعه الثلاث (وجدتها ! لقد عرفت القاتل ؟!)

(من هو ؟)

(سميث ، هل تعرف أكبر قبيلة هندية يا وليم ؟)

(بلى ، إنها قبيلة زباكا)

(قبيلة زباكا هي التي سحقت الحامية العسكرية و في نفس قتلت الشريف و مساعداه)

إندهش الحضور في المجلس مما سمعوه من وليم ، فأشار إلى أحد القادة العسكريين المتواجدين في الجلسة الطارئة و إسمه روبن ويلكس (أيها القائد روبن ، من الآن فصاعدا ستكون شريفا للمدينة ، مفهوم ؟)

(مفهوم سيدي)

الفصل الرابع

إتجه الشريف روبن إلى المنطقة المذكورة سلفا فرأى أمامه جنودا فوق جبل نيلتون ينتمون إلى الحامية العسكرية ، فأشار إليهم بيده فتوقفوا خلف الصخور يؤدون التحية العسكرية له كقائد جديد لهم بينما في قبيلة زباكا كانت مارينتا قد كبرت و صارت شابة دون أن يغير التقدم في السن من شكلها و جمالها حيث مازالت جميلة و بيضاء كما كانت في الصغر و رأها جيرو ممتطية حصانها الرمادي بيتا (يبدو عليك أنك تنوين المشاركة في القتال)

(هذا صحيح ، أتعرف ما هو هدفي يا عم جيرو ؟)

(ما هو يا إبنتي ؟)

(هو أن أساعد الهنود الحمر كلهم ضد من يعاديهم في السراء و الضراء بكل ما عندي)

(إنه لهدف جميل يا بنيتي ، و أنا عن نفسي سأساعدك بكل ما أوتيت من قوة)

(أشكرك يا عماه)

فبينما كان يتحاوران في موضوعهما الآني إذ بوالدها العجوز أكنتي يناديها و جيرو (هيا إلى الجبل)

(أمرك يا زعيم سنأتي ، هيا يا مارينتا)

(هيا بنا يا عماه)

ذهب ثلاثتهم إلى جبل نيلتون ، و عندما تأكد الشريف من خروجهم قام بهجوم على القبيلة حتى حاصرها و هددها بالسلاح و بينما كان الجيش في الجبل سألت مارينتا عمها جيرو و هي تنظر إلى الأفق البعيد (من هذا الرجل ؟)

(إنه الشريف الجديد)

(فهمت الآن ، أبي ، أبي)

نادته و شرحت له خطتها العبقرية و وافق على تنفيذها ، و ما إن تأكدوا من أن جميع أفراد القوة المحاصرة نائمين حتى أمرتهم مارينتا بالهجوم (الآن)

فتقدمت بجيشها الأمامي إلى المكان و هم يصيحون فأوقفوهم أفراد الحامية عند محاولتها إختراقهم قبل أن يفاجأوا بهجومها العنيف الذي سحق مؤخرتهم الشمالية ، فتصرخ مارينتا على الشريف (أيها الشريف)

فما إن يلتفت إليها حتى ترميه بسهم إخترق صدره و سقط على إثرها قتيلا و تحقق على إثر ذلك إنتصارها الحاسم للقبيلة .

و في مجلس الحاكم ويليام كان غاضبا إلى حد الجنون مما حدث ، فإتفق و أعضاء المجلس على تعيين الشريف رينيه فيترا و الذي قاد إثر تعيينه قوة عسكرية مكونة من ٣٠ ألف جندي و قسمها إلى قسمين ، أحدهما مع الشريف و الآخر على جوانب جبل نيلتون ، و عندما إستعدوا للهجوم مرت قافلة هندية من أعلى الجبل متجه صوب قبيلة زباكا ، و لحظة وصولها إلى أسفله صرخ الشريف في جنوده (أطلقوا النار !)

فأمطروا القافلة بوابل من الرصاص و قتلوا أفرادها جميعا ، و في غضون ذلك ، رأى أحد جنود أكنتي المجزرة المرعبة و أنطلق مسرعا بسرعة البرق نحو زعيمه ليخبره بهول ما حدث و تاركا الشريف يتفقد سير الحملة بنفسه (هل تم سحقهم جميعا ؟)

(نعم سيدي)

(هل رأنا أحد ؟)

(كلا يا سيدي)

(رائع ، الآن أستطيع القول بأن من يحاول عبور هذه الطريق فسيكون مصيره الموت)

عندما وصل المحارب إلى الزعيم أكنتي أخبره بكل شئ على الرغم من أنه كان يلهث من التعب ، و بعدما سمع الأول بما حدث غلب

وجهه اليأس و الحزن الشديدين ، إلا أن مارينتا واسته و خففت من ألمه قليلا (لا تيأس يا أبي أرجوك)

(ماذا عساي أن أفعل يا أبنتي ؟ سيقتلون أي شخص يحاول المرور أو حتى الأقتراب من هذه الطريق دون ريب)

(لا تقلق يا أبي ، عندي خطة رائعة لذلك)

(حقا ؟ ما هي ؟)

فأخبرتهم بكل شئ ، و في الصباح الباكر مازالت القوة مرابطة في الجبل السالف الذكر تراقب الطريق مراقبة دقيقة و تقتل أي شخص يقترب منه ، إلى أن تسللت مارينتا عبره بسرعة خاطفة دون أن يرأها أحد و تختبئ في مكان تحت ظل مغارة صغيرة ملتقية برجال والدها الذين سبقوها إلى هنا بنفس الطريقة (يجب ألا يروكم البتة ، فعندما تصل جواميس الفيزون[1] إلى هنا تطلقوا النار على الجنود المرابطين على الجانب الأدنى من الجبل هل فهمتم ؟)

فهم المقاتلين جميعهم مرادها و ظلوا في مكانهم ، بينما تسللت إلى الجهة الأخرى مصحبة معها عمها جيرو و حفنة من أتباعه (إقتربوا إلى هنا ، فعندما أعطيكم إشارة تطلقون الرصاص ، فيضرب صاحبنا بسوطه الجواميس فتنطلق بسرعة ....)

[1] نوع من الجواميس البرية في قارة غورانيا و تحديدا في غرب أمريكا (المؤلف) .

فـإقترب منهـا أحـد جنـود الأعـداء و عنـدما رأهـا لوحـدها أمسـك بهـا و وضـع يـده علـى فمـه ليمنعهـا مـن الكـلام و حاولـت عبثـا أن تصـرخ لكـن دون جـدوى ، إلا أنـه بينمـا كـان رينيـه يسـتطلع كعادتـه المكـان سـمع صراخا حادا قادما من أسفل الجبل (إتركني ، إتركني أيها الوقح)

فمـا إن أدار وجهـه إلـى مصـدر الصـوت حتـى وجـد أحـد رجالـه يمسـك بمارينتـا و يقتادهـا إلـى أعلـى ، فظـل لثـوان متسـمرا فـي مكانـه مـن هـول جمالهـا الآخـاذ السـالب للألبـاب ، ثـم مـا لبـث أن صـرخ فـي وجـه الجنـدي الـذي حـاول ضـربها كـي تصـمت بعـدما حاولـت الإفـلات منـه (توقف أيها الجندي ، أترك يدها)

(أمرك سيدي)

(ماذا كانت تعمل هناك ؟)

(كانت تحاول أن تتجسس علينا)

(ما إسمك يا فتاة ؟)

(إسمي مارينتا)

(إذن ، فأنـت إبنـة الـزعيم و قاتـل الشـريف نيكلسـون و روبـن ويلكـس ، أليس كذلك ؟)

(بلى ، و أنا قتلتهما بنفسي ، ألديك مانع ؟)

(نعم لدي مانع ، فالذي يعتدي على الحكومة الفيدرالية أحاربه ، إربطوها على هذا الجذع بشدة ، هيا)

حاولت مارينتا الفرار و لكن دون جدوى ، فإمسكوها و ربطوا بالحبل الأبيض يديها و شدوا عضديها بالجذع (أريني ماذا ستفعلين ؟)

أحد الجنود كان مذهولا من شدة جمالها الطاغي فلم ينتبه لحافة القمة فهوى إلى الأسفل جثة هامدة (سيدي ، جمالها و بياضها العجيب سيقتل الكثير من جنودنا لو إستمروا في تأملها)

(لذا يجب أن ننتبه منها و من مخاطرها)

(و هو كذلك)

فبينما هم يراقبون الطريق عن كثب فإذا بها تدفع بنعلها حجرة صغيرة إلى الأسفل ، و عندما سقطت عرفوا بأنها إشارة منها فأطلق جيرو الرصاص فسمعه رينيه و حاول أن يرى ما يجري قبل أن يتدخل الجندي ليعدل عن ذلك مما آثار إستغراب الأول لتصرفه هذا (ماذا دهاك يا مساعدي ؟ لما أوقفتني بحق الجحيم ؟!)

(أنظر يا سيدي إلى الأسفل و ستعرف)

(يا الهول ؟! جواميس الفيزون في الممر الضيق ؟!!!)

كان رينيه مذهولا مما رأه بأم عينه حين إندفعت الجواميس أمامه رعدا هائجا تثقب بحوافرها مدامك الأرض الصخرية من حولها و تدكها دكاً دكا من شدة أقدامها المتخمة بالعضلات البارزة و المتشحة بصوفها الأسود اللماع دون رحمة ، فأمر الجنود المقيمين على حافة إحدى منحدرات الجبل بالنزول لكي يطلقوا الرصاص بغرض إخافتها أو قتلها أن أمكن ، فحينما إقتربت منهم حاولوا التصدي لها قبل أن يفاجأوا بوابل من السهام النارية أطلقها مقاتلو قبيلة زباكا تخترق أجسادهم فيسقطوا من جرائها صرعى و تصبح فريسة للجواميس تسحق عظامهم الواهنة من شدة الحر ، مما آثار إستياء رينيه الشديد و يصب جام غضبه على مارينتا (أيتها اللعينة الحقيرة ، أنت السبب فيما حدث لجنودي ، لذا يجب تموتي عقابا لك على ما فعلته)

فيطبق بكلتا راحتيه على رقبتها و يخنقها فتسعل كثيرا طالبة النجدة مستغلا حالته التي يرثى لها مربوطة اليدين و القدمين إلى الخلف لا حول لها و لا قوة و كاد أن يقتلها على الفور لولا أن أحد السهام الطائشة التي إخترقت ظهر الشريف حتى صدره ليسقط على إثرها صريعا لكانت في خبر كان و تنفست الصعداء بعدما نجت من مخالبه و رأت عمها جيرو يتقدم نحوها ليفك وثاقها (هل أنت بخير يا مارينتا ؟)

(نعم أنا بخير ، لا تقلق بشأني)

مـــا إن حـــل وثاقهـــا حتـــى عانقـــت الســـماء بصـــدر رحـــب قبـــل أن تفاجـــأ بهجمـــة حفنـــة مـــن جنـــود الشـــريف القتيـــل عليهمـــا يحـــاولون النيـــل منهـــا قبـــل أن يتصـــدى جيـــرو لهـــم و يـــردي ثلاثـــة مـــنهم قتلـــى بغدارتـــه[٢] الخشـــبية اللـــون بمهـــارة فائقـــة و البـــاقي فـــروا مـــذعورين مـــدحورين ، فلـــم تســـع مارينتـــا فرحتهـــا الغـــامرة بـــذلك و دفعهـــا إلـــى إحتضـــان جيـــرو بســـرور طـــاغي أدهـــش الأخيـــر (أشـــكرك يـــا عـــم جيـــرو ، إنـــك حقـــا رجـــل شـــجاع مخلـــص لشـــعبك)

(و أنت ذكية و جميلة و بيضاء ...)

فسمعا معا هتافات محاربو القبيلة من الأسفل (ما هذا ؟)

فـــذهبا إلـــى مكـــان قريـــب مـــن قمـــة الجبـــل و رأوا المحـــاربين يهتفـــون لهمـــا بأجمـــل العبـــارات بصـــوت واحـــد يجلجـــل الـــوادي و جعلهمـــا فـــي قمـــة الســـعادة بعـــد تحقـــيقهم النصـــر المنشـــود (تعـــيش قبيلـــة زباكـــا ، يعـــيش زعيمنا أكنتي ، تعيش إبنته مارينتا و السيد جيرو)

[٢] مسدسه (المؤلف) .

الفصل الخامس

على أحد شوارع بوسطن التي يوجد بها مبنى الحكومة المحلية لولاية ماساتشوستس إنطلقت عربة ركاب مسرعة بسرعة البرق و توقفت امام بوابتها و نزل منها وليم غاضبا مع مستشاره الخاص سميث (هذا مستحيل ، مستحيل ! لا بد أن هذه المنطقة مليئة بشياطين الجحيم الأبدي)

(إنها الحقيقة ، مقر القيادة هناك أنبأنا بهذا الخبر الرهيب)

(أنا لا أصدق هذا ، إنه ثالث شريف نرسله إلى هناك و يقتل على يد نفس القبيلة ؟ قبيلة زباكا المتوحشة ؟)

(و ما العمل يا سيدي ؟)

(علينا أن نتعامل مع هذه القبيلة بحذر و إلا سنواجه مصاعب كبيرة ، و بذلك سنفقد منطقة أريكو التي يقع فيها سكة الحديد التي تربطنا بديترويت لحمايتها من هجمات الهنود الحمر ، و من أجل سنعقد جلسة طارئة لمناقشة آخر المستجدات في هذه الساحة ، تعال معي)

فدخل و مستشاره الجلسة التي حضرها أعضاء المجلس كعادتهم (أشكر جميع الأعضاء على حضورهم هذه الجلسة المهمة و المتعلقة بمنطقة أريكو المضطربة ، إرفع الستار يا سميث)

(حاضر سيدي)

رفع سميث الستار فتظهر على إثرها خريطة كبيرة لأريكو مرقمة ترقيما دقيقا و أمسك وليم العصا مشيراً إليها (لقد إستدعيتكم لهذا الإجتماع لخبر مهم ، للأسف عرفنا من مصادرنا في أريكو أن الشريف رينيه قد قتل في أحد جبالها الوعرة و على يد نفس القبيلة التي قتلت سلفيه نيكلسون و روبن ويلكس بخطة محكمة من قبل زعيمها ....)

(تقصد الزعيم أكنتي ، أليس كذلك ؟)

(بلى ، هو ذاك ، هذا الرجل الداهية الذي دوخ جيوشنا طيلة عشر سنوات و ما زال يشكل شوكة في حلق دولتنا العظيمة ، و علينا أن نتخلص منه شريطة أن نحتاط من ردة فعل قبيلته على ذلك)

فكان يشير بعصاه إلى الجبال في المنطقة على الخريطة ثم إلتفت إلى أعضاء المجلس (هنا سكة الحديد بوسطن – ديترويت ، و بالقرب جبل نيلتون حيث تسكن فيه قبيلة زباكا و الواقعة في أريكو ، هل تستطيع أية قبيلة هندية أن تهاجم المحطة ؟ قطعا لا ، لكن زباكا بمقدورها فعل ذلك ، فهي تنزل من الجبل بقوات قليلة و مدربة تدريبا جيدا إلى نقطة قريبة من السكة و تهاجمها بسرعة و تعود أدراجها

بسرعة ، و في نفس الوقت تأخذ حذرها من قوات الشريف خلال هجومها المعتاد ..)

فبعد الشرح جلس على الكرسي (و من الصعب الإنتصار عليها ؟!)

(و لكن يجب أن نعرف نقاط الضعف بسرعة شديدة ...)

(و كيف نكتشفها يا ذكي ؟ بواسطة المجهر ؟)

(أصمت أيها المتعجرف ...)

(أنا متعجرف أيها الصعلوك ، سأريك يا هذا ، يبدو أنك لم تنم ليلة البارحة ، أو بالأصح لم تجعل من حولك ينامون من شدة شخيرك المزعج و تريد أن تزعجنا به خلال نومك في المجلس لا في السرير ؟ ....)

فإحتدم الشجار بين أعضاء المجلس ، فتارة أحدهم يرمي الأوراق و تارة أخرى يقوم بحركات بهلوانية ، وقتها أتى النادل يحمل في الصينية أكوابا من الشاي الساخن (الشاي يا سيدي)

(انا لم أطلب منك شيئا أيها الأبلة)

فقذف بأحد الأكواب على وجه النادل الذي صرح من شدة الألم و على إثرها يصرخ وليم عليهم بغضب (كفى كفى ، كفى شجارا أيها الأغبياء)

فتوقفوا عن الشجار على الفور (نحن مجلس مدينة بوسطن و أعضاء في حكومة الولاية و لسنا في معلب للبيسبول ..... يبدو أنه ليس أمامنا سوى أن نبحث عن شريف بمستوى ذكائها بل يفوقها دهاءً و حنكة يعرف نقاط ضعفها)

(إنه موجود يا سيدي)

(حقا ؟ و من يكون ؟)

فخرج شخص وسيم ذو مهابة مرتديا بزة عسكرية زرقاء براقة أنيقة (هذا أنا سيد وليم)

(من ؟ شريف مقاطعة الأبلاش السابق المايجور دافيد ماكدونالد هنا ؟ مرحبا بك أيها المحارب الجوال)

(و أنت كذلك يا عزيزي)

(حسنا ، أيها السادة ، أود أن أعرفكم بالشريف دافيد ماكدونالد ، الشريف الجديد على أريكو و الذي سوف ينقذنا من قبيلة زباكا المتوحشين)

و لم يمض أسبوع على مجيئه حتى إنطلق مع قوة عسكرية بسرعة البرق نحو أريكو ، و أمر الجنود بتطويق جبل نيلتون من كافة النواحي فجأة ، و هدد زعيمها أكنتي بأنه سيكون مصيره القتل إذا لم يستسلم

ليقابله الثاني بالرفض التام ، و أثناء الحصار طلب أكنتي من إبنته أن تعد خطة لمواجهة الموقف بأسرع ما يمكن ، لكنها خشيت عدم قدرتها على وضع واحدة من خططها العبقرية حيث لم يكن بوسعها إنجازها بشكل عاجل و لم يسعفها تفكيرها إلى الإهتداء لذلك ، بينما تركها أكنتي على هذا الحال لحظة وصول جونا و جيرو و رنيو و ليفار إلى خيمته ليرحل معهم إلى قعر الجبل من الناحية الأخرى عبر نفق البقعة الحمراء ، و حين لمحهم دافيد يخرجون من هناك أمر جنوده باللحاق بهم و تعقبهم ، و عند عودتهم إلى قبيلتهم التي عمها الفرح و السرور لرجوع زعيمها إليها إذ بدا الشك يتسرب إلى عقل جونا حينما أحس بأن ثمة من يتبعهم ، فما إن إلتفت وراءه حتى لم يجد أحدا (الآن)

(مكانك يا هذا ، لا تتحرك)

تلفت جونا و أصدقائه جيرو و رنيو و ليفار وراءهم مجددا ، فوجدوا جنود الشريف أمامهم و إستعجلوا في إطلاق النار عليهم و يقتلوهم بمنتهى البشاعة التي أثارت غضب القبيلة عليهم حيث خرجت عن بكرة أبيها لمهاجمتهم ليعودوا إلى الشريف من فورهم (ماذا فعلتم بهم ؟)

(قققتلناهم ييا سيدي)

(لمـــا أنـــت خـــائف ؟ لقـــد قمـــتم بعمـــل رائـــع ، إســـتدرجوا القبيلـــة إلـــى هنـــا ، مفهوم ؟)

(مفهوم يا سيدي)

فمـــا إن وصـــلت قبيلـــة زباكـــا الـــى المكـــان المرصـــود لهـــا و إقتربـــت مـــن الفـــخ حتـــى هجـــم عليهـــا جنـــود الشـــريف و طوقوهـــا مـــن كافـــة النـــواحي و إنهـــالوا بوابـــل مـــن الرصـــاص علـــى محاربيهـــا فقتلـــوا العديـــد مـــنهم فبـــرز لهـــم أكنتـــي متحديا (الآن ...)

(لن أدعك تقولها)

فـــأطلق الشـــريف دافيـــد النـــار علـــى أكنتـــي و أرداه قتـــيلا و يســـقط مـــن علـــى متن جواده صريع مرؤته .

الفصل السادس

و مـــا إن رأت مارينتـــا ذلـــك و تلمســـت جثتـــه حتـــى هاجـــت مـــن البكـــاء و الصراخ إعصارا مدويا يصل مداه عنان السماء (أبي أبي أبيييييييي)

فأمســـك بهـــا راتـــون و حملهـــا علـــى ظهـــر جـــواده (هيـــا يـــا إبنتـــي ، علينـــا أن نهرب و نختبئ منهم)

ألا أنـــه واجـــه الجنـــود الفيـــدراليين أمامـــه ، فـــأطلق النـــار علـــيهم ليســـقطوا صـــرعى علـــى الفـــور ، ثـــم مـــا لبـــث أن أنطلـــق و مارينتـــا إلـــى قبيلـــة المـــاهونجي الواقعـــة فـــي جبـــل مـــونتيرو بعـــدما أبيـــدت زباكـــا عـــن بكـــرة أبيهـــا علـــى يـــد الشـــريف الجديـــد الـــذي مـــازال يتعقـــبهم بغيـــة الإمســـاك بمـــا تبقـــى مـــنهم دون كلـــل أو ملـــل إلـــى أن أدركهمـــا بصـــعوبة و رشـــقوا الحصـــان الـــذي كـــان راتـــون علـــى متنـــه بوابـــل مـــن الرصـــاص إلـــى أن أردوه قتـــيلا و يســـقط علـــى إثـــره الأول بمعيـــة مارينتـــا علـــى الأرض ، فيحـــاولا يائســـين الفـــرار مـــنهم دون جـــدي حيـــث ســـرعان مـــا أمســـك الشـــريف دافيـــد بهمـــا ليقتادهمـــا الـــى مقـــر القيـــادة (الآن عرفـــت الســـر فـــي ضـــمان تمركـــز قبيلـــة زباكـــا فـــي المنطقـــة و قوتهـــا اللامتناهيـــة ، إنـــه يعـــود إلـــى خططـــك العبقريـــة أيتهـــا الصـــبية الصـــغيرة ، و بمـــا أنـــك وقعـــت فـــي قبضـــتي أســـتطيع أن أديـــر المنطقة كما اشاء)

(ليس إلى الأبد أيها الشريف)

(أنت تبالغين يا صغيرتي ، القبيلة التي كانت تؤرق حكومتنا لم يعد لها وجود)

(لكن شعبي ما زال موجودا و سيقف لك بالمرصاد)

(ماذا تعنين ؟)

(أعني أن قبيلة زباكا ليست الوحيدة التي تقاوم محاولاتكم لإحتلال أرضنا ، هناك العديد من القبائل الهندية التي لن تسمح لك و لأمثالك من الجبناء أن يدوسوها بأقدامكم القذرة)

(إخرسي)

هوا براحته اليمنى عليها بصفعة شديدة أسالت الدم من فمها ثم أمسكها من عباءتها التقليدية (إذا تلفظت بهذا الكلام مجددا ، لسحقت وجهك الأبيض بقدمي هاتين)

(إنك مجرد ثور جائع يفر من سياط سيده و يلهث وراءه ليعطف عليه ببعض الفضلات حتى يقتات منها)

(قلت إخرسي)

و صفعها مجددا

(إصفعني أيها التابع القذر لأسيادك البيض)

و حـــاول أن يصـــفعها مـــرة أخـــرى قبـــل أن يمســـك راتـــون بيـــده إلا أن الجنـــود إنتزعـــوه منـــه و جلـــس الشـــريف علـــى الكرســـي (إرموهمـــا فـــي السجن)

فيقتادوهمـــا الجنـــود و يقـــذفوا بهمـــا إلـــى الســـجن الخشـــبي الـــرديء برطوبتـــه العاليـــة دون رحمـــة ليصـــابا برضـــوض شـــديدة (أهـــذا هـــو الســـجن ؟ أول مرة أعرفه)

(لا تهتم بذلك ، راتون ! ألا ترى تلك السلسلة التي بجانبك ؟)

(بلى أراها ، ماذا بها ؟)

(أعطني اياها)

فأعطاهـــا السلســـلة فشـــرحت لـــه خطتهـــا بغيـــة الهـــروب مـــن الســـجن ، فنـــادى علـــى الجنـــدي ليطلـــب الإذن منـــه لـــدخول الحمـــام ، فمـــا إن فـــتح بـــاب الســـجن حتـــى أمســـك راتـــون يـــداه و ربطهمـــا بالسلســـلة (هيـــه مـــاذا تفعل ؟)

(ستعرف كل شئ لاحقا)

فبعـــد أن شـــد الوثـــاق علـــى الجنـــدي أخـــذ منـــه المفـــاتيح و هـــرب و مارينتـــا من المكان (إلى أين سنذهب يا سيدتي ؟)

(إلى قرية فيلز)

(إلى قرية فيلز حيث رعاة البقر فيها ؟!! لماذا ؟!!!)

(ستعرف كل شئ فيما بعد)

و لم تمض ثلاث دقائق على فرارهما حتى حل الحارس وثاقه بصعوبة و إنطلق مسرعا نحو الشريف (لقد هربا يا سيدي)

(أيها المغفل ، تركتهما يهربان بمنتهى السهولة ؟!! ..... لا يهم ، هل تعقبت أثرهما و عرفت إلى أين ذهبا ؟)

(سمعتهما يقولان أنهما سيذهبان إلى قرية فيلز)

(يا الهول ! إنها مصيبة بحد ذاتها ؟؟! علينا أن نلحق بهما قبل أن يصلا إلى هناك)

فإمتطى دافيد صهوة جواده و إندفع مع جنوده بسرعة جنونية إلى قرية فيلز التي وصلت مارينتا إليها و بدأت تحرض سكانها من رعاة البقر المتمردين على سلطات الولاية (أيها الناس ، أن قوات الحكومة المحلية ستهاجمكم الآن لتخضعكم و تصبحوا تحت سيطرتها بطريقة مباغتة)

فرد شريف القرية كارل بنز عليها بمنتهى السخرية (حقا أيتها الهندية الشابة ؟!! و أين هم ؟!!!)

(علـــى مقربـــة مـــن الجبـــل المجـــاور لكـــم ، و يقودهـــا الشـــريف دافيـــد ماكدونالد ....)

(لحظة من فضلك ، قلت أن الشريف دافيد ماكدونالد يقودهم ؟)

(نعـــم و رب الكعبـــة ، و أتـــى لســـحقكم دون كمـــا ســـحق أهلـــي تحـــت أقدامه)

(لـــن نســـمح لـــه بـــذلك ، أيهـــا النـــاس ، هـــذا الرجـــل قتـــل أخـــي و قتـــل و إغتصـــب العديـــد مـــن نســـائنا خـــلال هجومـــه الغـــادر علـــى قريتنـــا فـــي شـــهر مايو الفائت ، هل ستسكتون له ؟)

(لا أبدا ، سنسحقه بأقدامنا ثأراً لكرامتنا)

(إذن ، هيا إنطلقوا)

فركبـــوا خيـــولهم متحمســـين للقتـــال ممـــا أشـــعر مارينتـــا بالفرحـــة الطاغيـــة لرؤيتهـــا ذلـــك حيـــث إنـــدفعت و راتـــون معهـــم لمشـــاركتهم فـــي المعركـــة ، و عنـــدما أتـــى دافيـــد إلـــى قريـــة فيلـــز ليفاجـــأ بخلوهـــا مـــن الســـكان (هـــذا مـــا كنـــت أخشـــاه ، هـــذا نـــذير شـــؤم يـــوحي بقيـــام حـــرب وشـــيكة بـــين رعـــاة البقـــر و الحكومة ، لن أتركك يا مارينتا ، هيا يا رجال)

فـــإنطلق و جنـــوده فـــي إثـــرهم دون توقـــف ، و عنـــدما وصـــلوا إلـــى قـــاع الهضـــبة حتـــى وجـــدوا رعـــاة البقـــر بقيـــادة كـــارل أمـــامهم يتربصـــون بهـــم ريـــب

المنـــون ، فتخليـــت مارينتـــا أن المعركـــة ســـتكون ثأريـــة حاميـــة الـــوطيس (هذا جيد)

(ليس جيدا يا مارينتا)

فوجئـــت مارينتـــا بدافيـــد خلفهـــا شـــاهرا مسدســـه عليهـــا (لـــن أدعـــك تنتصرين علي)

مـــا لبـــث أن ضـــرب راتـــون يـــد دافيـــد ليوقـــع المســـدس مـــن يـــده (لكنـــك ستنال جزاءك الآن ، خذ)

تضع قوسها و تخرج سهما من كنانتها و ترشقه بمنتهى الدقة فيخترق صدره ليقع على إثره من على متن جواده على الأرض قتيلا .

و نـزل جميـع الجنـود مـن أعلـى قمـة الجبـل إلـى أسـفل الـوادي ليقـاتلوا مـع بقيـة زملائهـم فـي عمليـة التطويـق محـاربو قريـة فيلـز و حلفـائهم مـن القبائـل الهنديـة فـي معركـة حاميـة الـوطيس إخـتلط الحابـل و النابـل فيهـا ، و قتـل ثلاثـة أفـراد مـنهم مقابـل ثلاثـة مـن الطـرف الآخـر و علـى رأسـهم شـريف القريـة كـارل بنـز ، و عقـب ذلـك نـادت مارينتـا علـى الهنـود الحمـر و أمـرتهم بـالهجوم علـى جـيش الشـريف دفعـة واحـدة و إنطلقـت مـع راتـون إلـى المعركـة إنطلاقـة الرعـد الرهيـب و خاضـت غمـار المعركـة حيـث قتـل فيهـا منـذ سـاعة علـى إنـدلاعها ثلاثـون جنـديا و أربعـون راعيـا للبقـر و خمـس و عشـرون هنـديا ، و لـم يكـن يقـل راتـون براعـة عنهـا فـي

القتال حيث صرع عشرة جنود بقفزاته الرائعة من على الحصان لتنتهي بإبادة جيش الشريف دافيد و رعاة بقر فيلز عن بكرة أبيهم ، عكس الهنود الحمر الذين كانت خسائرهم أقل من حلفائهم بشكل ملاحظ فتبددت الفرحة على وجه مارينتا مخاطبة أبناء قومها (الآن إنتهت مصاعبنا يا أبناء شعبي العزيز ، نستطيع أن نعيش بسلام و محبة و تعاون دون أن يحاربنا أحد من جيش الدولة الفيدرالية و أتباعها من رعاة البقر على حد سواء ، لذا علينا أن ننسى خلافاتنا التافهة و العميقة و نتكاتف معا في السراء و الضراء و نعمل جاهدين ما بوسعنا لسحق أي عدوان يحاول غزو أرضنا و يسعى إلى التفريق بيننا ، حتى لا يتجرأ علينا كما في السابق حينما كنا جزراً معلقة على رؤوس جبال الصمت تحاول منها درء الخطر المزعوم من قبل شقيقتها تحت طائلة الشك و الريب المزيف ، حسب ما قاله زعيمنا الروحي و والدي الشجاع الزعيم أكنتي)

ما إن سمع الناس كلامها حتى غمرتهم الفرحة الطاغية و رفعوها على أكتافهم هي و راتون دون أن يمنع إنحدار الدموع الحزينة من عينيها و هي تتذكر والدها الشجاع الذي ضحى بروحه فداء لشعبه و وطنه .

الفصل السابع

أما في مجلس مدينة بوسطن فقد ساده الغضب و الحزن جراء الأخبار الكارثية و المصير المأساوي الذي حل بأذكى قادتهم الشريف دافيد ماكدونالد و لم يتحمل وليم ذلك فضرب الطاولة بشدة (يا إلهي ، أنا لا أصدق ما جرى ، ثلاث شرفاء يقتلون في أسبوع واحد ؟!!! و على يد من ؟!!!! على يد هذه الهندية البيضاء اللعينة ؟!!!!)

(أن لم يستطع الشرفاء نرسل قوة من حرسنا الوطني لدحر قوتهم ...)

(لا تكن سخيفا يا سميث ! ليس لدينا الميزانية الكافية لهكذا مهمات عسكرية ، فضلا عن أن الحكومة الفيدرالية لم تعد راغبة في إرسال المزيد من قواتها الى هناك)

(و ما الحل يا سيد وليم ؟)

(ليس لدينا خيار سوى التفاوض مع زعيمتهم)

(ماذا ؟!! نعقد سلاما معها ؟!!! هذا مستحيل !!! تريدنا أن نعترف بسلطتهم الغير شرعية على المنطقة ....)

(قلت نتفاوض و ليس أن نعترف بهم)

(كيف ذلك يا سيد وليم ؟)

(دعوا الأمر لي ، لذا جل ما أطلبه منكم هو تأييدكم الكامل لمبادرتي بالتفاوض معهم ، هه ، موافقون ؟ (يترددون) موافقون ؟)

(موافقون سيد وليم ، بشرط أن تطلعنا على مجريات المفاوضات أولا بأول)

(و أنا موافق ، و سيرافقكم سكرتيري سميث بسير التفاوض خطوة خطوة ، سميث تعال معي)

أعد وليم حقائبه و أوراقه و معه سميث فعل ، فسافر كلاهما بالقطار مساءا إلى قاعدة أريكو العسكرية المجاورة لمحطة القطار بعدما أبلغوا عامل التلغراف فيها بمجيئهم ، ثم طلب منهم أن يرسل أحد الجنود المقيمين فيها كمبعوث إلى جبل نيلتون الموقع السابق لقبيلة زباكا ليبلغ زعيمتهم الجديدة برغبتهم الشديدة في التفاوض معها ، فما إن سمع ذلك حتى انطلق أحد الجنود بحصانه إلى جبل نيلتون (هل تعتقد يا سيدي بانها ستقبل التفاوض معنا ؟)

(أرجو ذلك فليس لدينا خيار ، إضافة إلى أننا نريد التعرف على هذه الفتاة و سر قوتها التي تجعلها تحشد القبائل الهندية المختلفة إلى صفها ضدنا)

(الهنود الحمر يتأمرون بأمر فتاة صغيرة ؟!!! إنها مبالغة)

(بعد قليل سنتأكد من ذلك)

مـــا إن عـــادا الجنـــديان إلـــى المقـــر بعـــد ثـــلاث ســـاعات حتـــى أبلغـــوه بـــأخر الأخبار (ما الأمر ؟)

(شئ لا يصدق يا سيدي ، لقد وافقت على التفاوض معكم)

(حقا ؟!! بهذه السرعة ؟!!!)

(أجل)

(إذن لما لم تأت معكما إلى هنا ؟!!)

(في الحقيقة لقد إشترطت أن تتم المفاوضات عند مقر قبيلتها)

(عنـــد مقـــر قبيلتهـــا ؟!! هـــل جننـــت يـــا هـــذا ؟!!! أتريـــدني أن أقـــذف بنفسي إلى التهلكة ؟!!!!)

(هل انت واع لما تقوله يا حضرة الرقيب ؟)

(أقســـم لـــك بشـــرفي العســـكري يـــا ســـيد ســـميث أن هـــذا مـــا حـــدث تمامـــا ، لكنهـــا تعهـــدت بتـــوفير الحمايـــة و الحراســـة لكمـــا و تـــأمين عودتكمـــا إلـــى بوسطن سواء نجحت المفاوضات أم فشلت)

(يـــوفرون لنـــا الحمايـــة ؟!!! إنهـــم ذئـــاب مفترســـة لا يعرفـــون لا عهـــدا و لا ذمة و يغدرون بضيوفهم إذا رغبوا في ذلك دون خوف من أحد)

(و مـــن قـــال لـــك بأننـــا ســـنترككما وحـــديكما معهـــم ؟ ســـنرافقكم و نحضـــر بصحبتكم المفاوضات)

(أرايت يا سيدي ؟ سيكونون معنا ، فلا تخش شيئا)

(حسنا ، أمرنا لله)

فإنطلقوا جميعا إلى جبل نيلتون و صعدوا إلى قمته ، فإذا بمارينتا تستقبلهم أحر إستقبال و يلجوا خيمتها المتواضعة ، فجلسا على الكراسي ليتفاوضوا حول مستقبل أريكو و العلاقات بينهما و عندما رأها سميث إندهش لجمالها الآخاذ و كاد أن يغرم بها على الفور حتى وكزه وليم بمرفقه ليرد عليه الأول بنفس الطريقة و إبتسما و إنفجرت اساريرهما في وقت واحد مما آثار إستغراب راتون منهما (ما بك سيد و ليم ؟!!!)

(هه ؟ لا شئ ، إعرض أمامنا شروطكم يا راتون)

(هل إقرأ يا سيدتي ؟)

(حسنا ، إبدأ الآن بالقراءة يا راتون)

(احمم ، شروطنا هي كالتالي : ١- لا تدخلوا قواتكم العسكرية و رعاة البقر التابعين لكم إلى منطقة أريكو ٢- منح منطقة أريكو الحكم الذاتي ....)

(إستقلال أريكو عنا ؟!!! هذا مستحيل ؟!!! بإسم حكومتنا لن نتخلى عنها مهما كان الثمن .....)

(رويدك يا سيد وليم ، أنا لم أذكر إستقلال بل حكما ذاتيا تحت إشرافكم لكيلا تزيد أعبائكم الإدارية و لا تستطيع حلها فيضطر حاكم الولاية إلى فصلك ، نحن في النهاية تابعين لولايتكم لكن كل ما نريده هو إدارة منطقتنا وفقا لأعرافنا و تقاليدنا القبلية فحسب)

(معك حق ، و شرط معقول ..... أكمل يا سيد راتون)

(٣- عدم إنتهاك حرمات الهنود الحمر في أعراضهم و أراضيهم و أموالهم ٤- دفع تعويضات لأسر شهدائنا في حروبنا السابقة معكم)

(ما رأيكم سيد وليم ؟)

(قبل أن نوافق على شروطكم فعليكم أن تستمعوا بدوركم إلى شروطنا ، أليس كذلك ؟)

(أصبت سيد وليم ، تفضل)

(شكرا ، إتلو عليهم شروطنا يا سميث)

(أمرك سيدي : ١- عدم الإعتداء على القطار أو السكة الحديدية أو محطتها التي تربطنا بديترويت من قبلكم و تكتبون لنا تعهد بذلك ٢- حصول أريكو على الحكم الذاتي تحت سيادة ولاية ماساتشوستس ٣- دفع الضرائب المفروضة عليهم من قبل حكومة الولاية حتى

تساعدكم لمواجهة أي خطر داهم يتهددكم ٤- بقاء قاعدة عسكرية تابعة لنا بالقرب من محطة قطار أريكو ...)

(قاعدة عسكرية في أريكو ؟!! هذا مخالف لشروط الحكم الذاتي ...)

(نحن موافقون على شروطكم سيد وليم)

(سيدتي ؟!! ...)

(راتون ، من حق سلطة الولاية أن تضمن سيادتها على المنطقة مثلما يحق لنا أن نضمن كامل حقوقنا الأساسية كسكان أصليين لها ، و لاسيما أنها لم تتعارض مع مطالبنا المشروعة تماما)

(أصبت سيدة مارينتا ، لذا فنحن موافقون على شروطكم كاملة)

(إذن إتفقنا)

فتصافحت مع السيد وليم بكل إخلاص و محبة ، و خرج راتون إلى قومه يخبرهم بعدم إعتداء حكومة الولاية عليهم بعد الان ، ففرحوا فرحا شديدا لحظة سماعهم الخبر ، و عاد وليم و سكرتيره الخاص بحصانيهما إلى محطة أريكو للسكك الحديدية و صعدوا القطار المتجه إلى بوسطن ، و بينما كانا جالسين في قمرتهما فإذا بوليم

يخـــرج قلمـــه و ورقـــة مـــن حقيبتـــه ليضـــعها علـــى طاولـــة صـــغيرة موضـــوعه أمامه (ماذا تفعل سيدي ؟)

(سأكتب رسالة إلى حاكم الولاية)

(حاكم الولاية شخصيا ؟!! لماذا ؟!!)

(مـــن أجـــل أن يعـــرف حقيقـــة الـــزعيم الجديـــد لقبائـــل أريكـــو الهنديـــة ، تلـــك الهنديـــة البيضـــاء مارينتـــا التـــي بجمالهـــا و ذكائهـــا الخـــارقين ســـتكون إمبراطوريـــة عظمـــى للهنـــود الحمـــر لـــيس فـــي أمريكـــا فحســـب بـــل فـــي أمريكـــا الشمالية جمعاء)

(ألهذا الحد يا سيدي هي شديدة الخطورة علينا ؟)

(بـــالطبع ، بـــل أن حدســـي يخبرنـــي بأنهـــا ســـتجند قبائـــل المنطقـــة للقتـــال تحت رايتها لتحقيق مآربها تلك)

و كـــان محقـــا فـــي ذلـــك إلـــى حـــد مـــا ، فمـــا أن تمتعـــت منطقتهـــا بـــالحكم الـــذاتي حتـــى كونـــت جيشـــا نظاميـــا خـــلال فتـــرة الإتفاقيـــة التـــي دامـــت عشـــر ســـنوات إجتاحـــت بـــه ولايـــات الجنـــوب الامريكـــي و المكســـيك بأكملهـــا دفعـــة واحـــدة ثـــم وجهـــت دفتـــه إلـــى ولايـــات الغـــرب الأمريكـــي التـــي تســـاقطت الواحـــدة تلـــو الأخـــرى بفضـــل خططهـــا العســـكرية العبقريـــة و تأييـــد الهنـــود الحمـــر فـــي الأراضـــي المـــذكورة ســـلفا لهـــا و طاعتهـــا لهـــا طاعـــة عميـــاء دون ســـابق إنـــذار ، حتـــى ولايـــات الوســـط بمـــن فيهـــا ماتسوشـــتس و

عاصمتها بوسطن تحت سنابك خيلها التي عجزت بنادق الجيش الفيدرالي و مارشالاتها عن صدها ، لتبدأ في إجتياح المناطق الهندية في كندا بنجاح ، لكن سكت هدير إنتصاراتها فجاة عن القعقعة بصوت عال عندما عمت الخلافات داخل إمبراطوريتها الواسعة بين شيوخ القبائل و زعمائها و الذين معظم لم يقبلوا زعامتها عليهم بحجة أنها إمرأة و من قبيلة أقل شأنا على الرغم من أنهم إنسحروا بجمالها الآخاذ الذي لا مثيل له و التي إستغلها المستوطنون البيض لصالحهم أحسن إستغلال ، و حاولت عبثا أن تحل هذه المشاكل التي أدت إلى تقلص إمبراطوريتها تدريجيا بحكمتها المتناهية و بحلولها المبتكرة دون جدوى حيث أن نزعتها الإنتقامية من أجل والديها لم تجعلها تدرك تماما أنه بات من المحال توحد الهنود الحمر تحت لواء كيان واحد و هم لم يغيروا ما بأنفسهم من عادات و تقاليد بالية عفا عليها الزمن و تفرق بينهم و إخوتهم في العرق المشتتين في أرجاء القارة و تضاريسها الوعرة و حروبهم الصغيرة ، و لم تدرك هذه الحقيقة إلا خلال إستشهادها في معركة أوتاوا عام ١٨٩٧م إثر إختراق ثلاث رصاصات غادرة من شيخ قبيلة مارنو ظهرها الرقيق غارقة في دمائها مبتسمة بعدما رأت أمارات النصر مرسومة على وجوه جنودها متمتمة بكلمات خافتة حين لمحت خيال والدها أكنتى يلوح أمامها فاتحا ذراعيه لإحتضانها بين دفتيه الهلاميين (هل رضيت يا أبي ؟)

فمـــا إن ســـلمت روحهـــا و هـــي فـــي ســـن العشـــرين مـــن عمرهـــا لتنـــام فـــي حضـــن والـــدها الحـــزين و هـــو يـــرى أبنـــاء قبيلتـــه يتقـــاتلون فيمـــا بيـــنهم إثـــر رحيلهـــا معـــه و الأعـــداء يصـــطادونهم صـــيد الثعالـــب لفرائســـها مـــن كـــل حـــدب صـــوب و ينهـــار حلمهمـــا الجميـــل بدولـــة هنديـــة قويـــة الشـــكيمة يحسب الناس لها ألف حساب .

(النـــهـــايـــة)